# شعر
# الوقوف على الأطلال
## من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

— ٩ —

### الفصل الثالث

### الشعور الفني في شعر الوقوف على الأطلال

من خصائص الشعور الفني أن يمتعنا بالجمال في الحياة العملية بانتزاعنا من هذه الحياة ، ونقلنا إلى أجواء أخرى لا تتصل بها . فإن بعض الإحساسات تستطيع أن تنتزعنا من الحياة الحاضرة ، وإن كانت متصلة وممتزجة بها ، وذلك لتجردها من النفع والمصلحة الحاضرة . وإذا كانت الإحساسات تستطيع ذلك ، فالصور والذكريات الماضية يكون تأثيرها فينا أقوى وأكبر في هذا المجال ، لأنها مجردة من النفع والمصلحة ، وخارجة عن إمكان التحقق في أي شيء حاضر أيضاً . إن الإحساسات قد تثير فينا مشاعر بأشياء ماضية بعيدة في الزمن ، ولكنها قد تكون سبباً لمشاعر مستقبلة أيضاً . أما الصور والذكريات الماضية فهي تثير فينا مشاعر بأشياء ماضية ، قد ذهب تأثيرها إلى غير رجعى . فهي لذلك تنتزعنا انتزاعاً أقوى ، أو انتزاعاً مزدوجاً من الحياة الحاضرة كما قلنا . ومن هنا كان الشعور الفني في الصور والذكريات الماضية غنياً غنى كبيراً كما في شعر الوقوف على الأطلال .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن حين نقرأ هذا الشعر نعجب به ، ونجد في قراءته لذة ومتعة فنية خاصة ، لأنه ينقلنا إلى أجواء جديدة ، في حياة جديدة ، لا عهد لنا بها جميعاً ، ويعرض علينا صوراً طريفة لا تتصل بمشكلات حياتنا الخاصة ، ولا يتحقق لنا فيها شيء من النفع أو المصلحة . إننا نشعر حين نقرأ شعر الوقوف على الأطلال بجمال خاص يحققه هذا الشعر . وهذا الجمال الخاص يخلق في نفوسنا شعوراً خاصاً ، يتصف دائماً بالكآبة والأسى ، فلنبحث في العناصر التي تشترك في تأليف هذا الجمال ، وخلق هذا الشعور . وهي في رأينا ثلاثة عناصر: عنصر الماضي ، وعنصر الاندثار والخراب ، وعنصر الذكرى .

١ — أثر الماضي :

إن للأطلال والآثار القديمة روحاً خاصة . وهذه الروح كائنة في بقايا الماضي التي تجدد لنا حياة ممحوة عافية في صورها الخربة الناقصة عن منزلتها الأولى . وهي تستمد من هذا الماضي الذي تثيره في أذهاننا قوة إمتاع قد يضيع الفن نفسه إلى جانبها شيئاً كبيراً من تأثيره وفتنته . مثال ذلك بناء حديث من الأبنية الكبيرة ، تتوفر فيه الضخامة والفخامة في وقت واحد ، ويمسحه الفن الحديث ووسائله الكبرى بمقدار كبير من الجمال . هذا البناء لا يحدث في نفوسنا الشعور الذي يحدثه فيها طلل أو أثر قديم نصيبه من الفن أقل بكثير من نصيب هذا البناء الكبير . والذكريات لا تستمد سحرها وجمالها من وضوحها وجمالها الذاتي ، وإنما من غنى الماضي الذي تتضمنه ، وإن كانت ناقصة مشوهة في ذاتها . والميل الغريب الذي يحملنا على الإعجاب بالقطع الفنية القديمة وبعض قطع الأثاث المستعملة قبل مائة عام مثلاً ، أي قبل مدة كافيه لتصبح هذه القطع ماضية حقيقة ، وتدخل في التاريخ ، بغياب الجيل الذي صنعها والأجيال التي عرفت هذا الجيل ، وشاركته في مجالات حياته وميوله . نقول إن هذا الميل الغريب ليس له أساس في ذو شأن سوى صفة المضي ، وكثير من الأشياء التي يحتقرها الناس في وقت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الأوقات قد تعجبنا وتسرنا عندما تصبح بالقياس إلينا رموزاً لحياة وميول ومجالات مضت وذهبت عنا بعيداً ، وغابت إلى غير رجعى .

على أن جمال الفن يمكن له أن يمتزج بسحر الماضي . وهذا الامتزاج هو الذي تنشأ عنه العظمة الفنية في بعض الأطلال الكبرى . وسهولة هذا الامتزاج ، وثباته التام على مدى العصور يدلان دلالة قوية على القرابة العميقة بين هذين النمطين من الجمال ، جمال الفن وسحر الماضي . ولا شيء يزيد شعورنا الفني قوة وغنى كاتحاد هذين النمطين من الجمال في قطعة أثاث قديمة أو في أثر قديم مثلاً . إن البناء في حاجة إلى ماض نحلم به ، وكذلك أكثر الآثار الفنية . وسحر الماضي عنصر أساسي لا يمكن لأثر فني أن يستغني عنه إلا في أحوال نادرة جداً .

وقصارى القول إن صفة المضي والبعد في أعماق الزمن ، هذا البعد الرابع ، فيها خاصة عجيبة لخلق الجمال وبعث الشعور بهذا الجمال . وهذا الشعور يتصف دائماً بالهدوء العميق ، والتأمل البعيد ، والاستغراق في الصمت . وفي بعض الأحوال عندما تبعد النفس الشاعرة في الاستغراق والتأمل إلى حد الذهول والغياب عن الحاضر المحسوس ، يتصف هذا الشعور بثورة الخيال ومحاولة بعث الحياة الماضية التي كانت تتردد في جوانب الطلل أو الأثر القديم .

وقد وقع ذلك للبحتري في وقفته على إيوان كسرى ، حين طار به الخيال ، فتصوّر الحياة الماضية في الإيوان . وقد خلد البحتري ثورة خياله هذه في أبياته الخالدة :

فكأني أرى المراتبَ والقو ... مَ إذا ما بلغتُ آخرَ حسّي
وكأن الوفودَ ضاحينَ حَسْرى ... من وقوف خلف الزحام وخُنْسِ
وكأن القِيانَ وسط المقاصيـ ... ـر يرجّعن بين حُوٍّ ولُعْسِ
وكأن اللقاء أول من أمـ ... ـس ووشك الفراق أول أمسِ
وكأن الذي يريد اتباعاً ... طامع في لحوقهم صبح خمسِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد تصور البحتري الحياة الماضية بضخامتها وعظمتها وحركة الأجسام والأرواح فيها . وهذه طاقة شعورية كبيرة ، لا تتاح لمعظم الشعراء ، بله عامة الناس .

ونلاحظ أن الصورة التي يرسمها الخيال في محاولة تصوير الحياة الماضية تتلاءم دائماً والأثر الباعث على هذه المحاولة . فإذا كان الأثر كبيراً ضخماً كانت الصورة المتخيلة كبيرة ضخمة ، وإذا كان الأثر ضعيفاً ضئيلاً كانت الصورة ضعيفة ضئيلة أيضاً . وعلى هذا فإن آثار قصر عظيم تدعو إلى تصور حياة قوية غنية ، فيها بذخ وترف ، وبقايا كوخ حقير تدعو إلى تصور حياة فقيرة ساذجة ، فيها شقاء وحرمان .

وكما أن الأطلال والآثار القديمة تمثل صوراً من حياة ماضية ، وتثير في نفوسنا شعوراً بجمال خاص لذلك ، فكذلك الشعر الذي يصف هذه الأطلال والآثار ، ويقدم لنا صورها في تلافيف من أخبارها وأخبار الواقف عليها ، وعلاقته بها ، نقول : هذا الشعر يثير في نفوسنا الشعور بالجمال ذاته الذي تثيره الأطلال والآثار ، كما في شعر الوقوف على الأطلال عند العرب .

٢ — أثر الاندثار والخراب :

إن بعض المدن التاريخية القديمة ببقاياها الخربة وآثارها المتهدمة تملك قوة معجزة في إثارة الشعور الفني . ولقد وقفت على أطلال تدمر القديمة ، وطوفت في شوارعها ومعابدها وقصورها وقبورها . وكلها قد طال عليها الأبد ، وعدت عليها يد البلى ويد الإنسان ، وتولتها بالخراب والدمار ، فتداعت وتهدمت ، ولم يبق منها إلا معالم خربة قليلة . ولكنها على خرابها وقلتها عظيمة غنية موحية ، توحي بالحياة العظيمة الغنية التي كانت تنبض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أنحائها في الأيام الغابرة . ولقد تولاني وأنا أطوف بين هذه المعالم الخربة شعور غريب بالأسى والاكتئاب ، صحبه هدوء وصمت وتأمل ، ظلت كلها تزداد قوة وعمقاً حتى وصلت بي إلى طور الذهول والاستغراق ، والبعد شيئاً فشيئاً عن الواقع الذي يحيط بي إلى عالم جديد ، لا عهد لي به من قبل .

ثم لما عدت إلى الفندق ، ورأيت الناس يجيئون ويذهبون فيه ، وشاهدت الأدوات الحديثة الحقيرة التي تناثرت في بهوه ، وسمعت الزملاء يصيحون ويتكلمون على الأطلال ، ويبدون إعجابهم بها في عبارات ضخمة ، لا تنبئ عن شيء حقيقي عميق ، عندها ثبت إلى نفسي ، وأفقت من ذهولي ، وعلمت أنني ما زلت في دنياي الحاضرة ، وأنني كنت في استغراق يقرب من الحلم . وقد زاد إحساسي بالأسى والاكتئاب عندما اكتشفت أنني كنت ذاهلاً . ثم قضيت بقية ساعات النهار صامتاً هادئاً ، قليل الحركة ، قليل الكلام ، مشرد الفكر والخيال .

وقد مضت سنون طويلة على ذلك اليوم . وما زلت إلى الآن يتولاني شيء من الهدوء والتأمل كلما ذكرت ذلك اليوم ، ومرت في خاطري صورة الأعمدة الضخمة ، وقد ذهبت في الجو الفسيح ، وأخذت تلتمع تحت نور الشمس اللامعة في صمت وخشوع ، وكأنها تردد صلاة الأجيال وتراتيل الخلود .

والآن حين أقرأ شعر الوقوف على الأطلال ، وأمضي فيه ، أحس هذا الشعور ذاته ينبعث في نفسي شيئاً فشيئاً ، وأحس أن هذا الشعور يزداد قوة وتأثيراً عندما أمرّ على صور الخراب والدمار في هذا الشعر ، وأصغي إلى هزيم الريح تسفي بالرمال ، وأنظر إلى السحاب يزحف بالمطر على هذه البقايا الضئيلة من آثار الديار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي شعر الوقوف على الأطلال صور كثيرة للديار الخربة ، وبقاياها العافية ، رسمها الشعراء بألوان حزينة كئيبة ، فيها ظلام وبؤس ، وذهاب إلى الفناء شيئاً فشيئاً . وقد أضافوا إلى هذه الصور ألواناً أخرى خارجة عن الألوان الأصلية ، تزيد في الحزن حزناً ، وتلائم الاكتئاب ، مثل هزيم الريح وسفي الرمال ، ومثل غناء الحمام ، ووقوع الغربان في الدار . وكلها ألوان إضافية تؤثر في الأعصاب ، وتثير الحزن العميق والاكتئاب الهادئ في أعماق النفس .

٣ ــ أثر الذكرى :

إن للذكرى وعودة صور الأيام الماضية إلى الذهن أثراً كبيراً في إثارة الشعور الفني أمام الأطلال والآثار القديمة . وبعض الآثار الكبيرة كخرائب المدن القديمة ، والقصور التاريخية التي شهدت في جوانبها حياة قوية غنية تتصف أيضاً بهذه القوة المعجزة في إثارة هذا الشعور .

وليس بغريب عنا أن يجلس أحدنا إلى نفسه ، ويسند رأسه المتعب المهموم إلى راحة يده ، ثم يذهل عن وجوده الحاضر ، ويستغرق في تأملات بعيدة . فتمر أمام ناظريه التائهين صور ماضية كثيرة ، مختلفة الألوان والأشكال . بينها مثلاً صورة شمس تغيب في الأفق الغربي في موكب حافل بالأنوار والألوان ، أو صورة واد سحيق فيه قيعان مظلمة ، وصخور نائئة ، وأشجار متناثرة . وبينها ذكرى حادثة عاطفية خلفت في النفس آثاراً عميقة . تمر هذه الصورة وأمثالها أمام ناظريه ، فيلذ مرورها ، ويجد في ذلك متعة مشوبة بألم خفيف دفين يعتري فؤاده ، كأنه ألم طعنة أو وخزة في الجنب ، خفيفة الوقع ، خافية المصدر ، ويحس بعينيه تغرورقان بالدموع . وقد تكون هذه اللذة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه المتعة قويتين تفوقان اللذة والمتعة اللتين شعر بهما في المرة الأولى ، عند شهود الصورة عياناً أو وقوع الحادثة فعلاً .

وفي الحقيقة إن الأفراح والأحزان التي تعتري نفوسنا في شتى أوقات حياتنا ، ولشتى الأسباب ، تبقى في المادة طافية على صفحة النفس الأولى ، إن صح هذا القول . وهي تحتاج إلى زمن ما لتنحدر من هذه الصفحة الأولى ، وتستقر في أعماق النفس حيث ترتسم الحوادث الكبيرة التي تغير وجهة حياتنا العاطفية . وعلى هذا كله يمكن لنا أن نقول : إن الحالات العاطفية لا تتحقق في نفوسنا كل التحقق ، ولا نعيشها تماماً ، إلا حين تسقط في لجة الماضي ، وتصبح ذكريات ماضية . وفي هذا قد نكشف السر في أن الذكرى السعيدة قد تكون أصدق وأقوى من السعادة الراهنة . وهذا هو المعنى العميق البعيد في قول الأعرابي :

شطتْ بهم عنك نيةٌ قَذَفٌ غادرت الشَّعْبَ غير ملتئمِ
واستودعت سرَّها الديارَ فما تزداد طيباً إلى على القــدم

وشعر الوقوف على الأطلال عند العرب مثقل بالذكريات ، وفيه دائماً صلة تشد الشاعر إلى ماضٍ حبيب إليه ، عزيز عليه ... فيقف ليبكيه ، ويقضي حقه عنده . فامرؤ القيس مثــلاً يدعو صاحبيه للوقوف والبكاء لذكرى حبيبه وعرفان منزله :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفانِ ورسم عفَتْ آياته منذ أزمانِ
أتتْ حِجَجٌ بعدي عليها،فأصبحت كخط زبورٍ في مصاحف رهبانِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذكرتُ بها الحي الجميعَ فهيَّجتْ عقابيلَ سقم من ضمير وأشجانِ
فسحَّتْ دموعي في الرداء كأنها كلى من شَعيب ذات سَحٍّ وتهتانِ

إنه يقف للذكرى ، فيذكر أيامه الماضية ، والحي جميع لم يتفرق شمله ، فتهيج الذكرى داءه القديم فيبكي ، ويطيل في البكاء .

وشعر الغزلين البداة في الوقوف على الأطلال كله ذكرى وحنين وبكاء كما ذكرنا في الفصلين السابقين ، ذكرى حبيب وأيام ماضية ، وحنين إليه وإلى أيامه الماضية ، وبكاء عليه وعلى الأيام الماضية ، يقول جميل :

لما وقفت بها القلوص تبادرت مني الدموعُ لفرقة الأحباب
وذكرت عصراً يا بثينة شاقني وذكرت أيامي وشرخ شبابي

وذو الرمة قد ينسى حبه ، ويسلو عن مي أحياناً ، ولكنه يرى ديارها القديمة فيذكر ماضيه ، ويعود إليه الحب ويثيره الشوق ، فيقول :

إذا قلت أسلو عنك يا مي لم يزل محـــل لدار من ديارك ناكسُ

* * *

وبعد فهذه العناصر جميعاً ، الماضي البعيد الذي لن يعود ، والاندثار الذي يوحي بالفناء ، والذكرى اليائسة الأليمة ، وعناصر أخرى غيرها قد مسحت شعر الوقوف على الأطلال بمسحة من الكآبة السائغة المحببة إلى النفوس . وهذه العناصر تشترك جميعاً ، فتثير في نفوسنا حين قراءة هذا الشعر شعوراً سائغاً بالأسى والاكتئاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

# خاتمة

والآن وبعد هذه الفصول في معاني شعر الوقوف على الأطلال ، وفي تطور هذا الشعر خلال العصور الأدبية ، وفي تحليل الشعور الفني الذي يثيره في نفوسنا أثناء قراءته ، نعود فنقول هنا ما كان ينبغي لنا أن نقوله في البدء من أن السبب في افتتاح شعراء العرب قصائدهم بالنسيب ، ومنه شعر الوقوف على الأطلال ، واتخاذهم ذلك شبه قاعدة فنية ، أن « الشعر قفل أوله مفتاحه »(١) كما يقول ابن رشيق . فإن استطاع الشاعر أن يعطف إليه القلوب ، ويجلب لنشيده الأسماع في بدء قصيدته كان ذلك كسباً للجولة الأولى ، وتمهيداً حسناً لعرض غرضه العام . وليس شيء أقوى عطفاً للقلوب من حديث القلوب .

ويبدو لنا هنا أن السبب في استمرار شعر الوقوف على الأطلال خلال العصور ، وامتداده إلى العصور العباسية البعيدة عن البادية وصورها وأطلالها ، نقول : إن السبب في ذلك راجع إلى السر ذاته الذي من أجله اتخذ هذا الشعر شبه قاعدة فنية لافتتاح القصائد ، وهو جمال هذا الشعر ، وحسن موقعه في القلب ، وإثارته في النفس الإنسانية شعوراً فنياً خاصاً ، على الرغم من اختلاف العصور وتغير البيئات . وفي الحقيقة أن شعراء العرب قالوا في الوقوف على الأطلال شعراً غنياً بأنغام حزينة نبيلة صافية ، وهو يعد لذلك من أحسن الشعر الغنائي في الأدب العربي .

ونضيف إلى هذا السبب الناشئ عن جمال شعر الوقوف على الأطلال سبباً آخر هو حنين العرب المسلمين إلى ماضيهم البعيد في الصحراء .

---

(١) العمدة ١/١٩١ .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالأجيال العربية التي نشأت في أحضان الحضارة الجديدة ، بعيدة عن رمال الصحراء ، والتي تأثرت بالعناصر الغريبة عن الروح العربية ، كانت تحن إلى هذا الماضي البعيد ، وتحفظ ذكراه في إكرام وإجلال يقربان من التقديس . وكانت تكرم وتقدس كل ما يذكرها بهذا الماضي البعيد كشعر الوقوف على الأطلال مثلاً .

ولم تستطع هذه الحضارة الجديدة العظيمة التي أخذوا بها ، وأمعنوا في التنعم بجمالاتها ، أن تلهيهم عن الصحراء التي نجموا منها . ولم يمنعهم تراخي العصور وبعد عهدهم بالصحراء من الحنين إليها . ولقد كانت هناك أسباب كثيرة تثير هذا الشعور ، وتغذّيه على الدوام . منها الحنين إلى الأصل الذي نجد آثاره عند العرب الأندلسيين في القديم ، وعند المغتربين في المهجر في أيامنا الحاضرة . ومنها ما كانت تقرؤه هذه الأجيال في كتب الأدب والشعر من صور وأخبار تصف الصحراء وصفاً مؤثراً يهز قلوبهم ، ويثير فيها الحنين . ومنها ما كانت تراه من تعصب الشعوبية على العرب ونيلها من تراثهم القديم .

ورب سائل يقول : وما شأن الشعراء الأعاجم الذين نظموا الشعر ، وتغنوا فيه بالديار ؟ إنهم لا يحفلون بماضي العرب ، ولا يحنون إلى صحرائهم ، فكيف يتغنون بالديار وصور الصحراء القديمة في شعرهم المحدث ؟ والحقيقة أن الشعراء الأعاجم قد اهتموا بصور الصحراء ، ومنها أطلال الديار ، في شعرهم . وتعليل ذلك هو انسياق هؤلاء الشعراء مع الشعور العام وخضوعهم لهذا الضغط المعنوي الشديد الذي كانت توقعه اللغة العربية والأدب العربي والذوق العربي جميعاً بالمجتمع الإسلامي في ذلك الحين .

الدكتور عزة حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net